الجاحظ وكتابه البيان والتبيين

الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري، أديب عربي كان من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة سنة 150 هـ وتوفي فيها سنة 255هـ.

كان ثمة نتوء واضحٌ في حدقتيه بمعنى في عينيه فلقب بالحدقي ولكنَّ اللقب الذي التصق به أكثر وبه طارت شهرته في الآفاق هو الجاحظ، عمّر الجاحظ نحو تسعين عاماً وترك كتباً كثيرة يصعب عدها، وإن كان البيان والتبيين وكتاب الحيوان والبخلاء أشهر هذه الكتب، كتب في علم الكلام والأدب والسياسية والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان والصناعة وغيرها.

ثقافته : كان للجاحظ منذ طفولته ميلٌ واضحٌ ونزوعٌ عارمٌ إلى القراءة والمطالعة حَتَّى ضَجِرَتْ أُمُّهُ وتبرأت منه. وظلَّ هذا الميل ملازماً له طيلة عمره، حتَّى إنَّه فيما اشتُهِرَ عنه لم يكن يقنع أو يكتفي بقراءة الكتاب والكتابين في اليوم الواحد، بل كان يقصد دكاكين الورَّاقين ويبيت فيها للقراءة والنَّظر والعمل، ولكن الجاحظ لم يقصر مصادر فكره ومعارفه على الكتب، وخاصَّةً أنَّ ذلك عادةٌ مذمومةٌ فيما أخبرنا هو ذاته وأخبرنا كثيرون غيره، إذ العلم الحقُّ لا يؤخذ إلا عن معلم، فتتلمذ على أيدي كثيرٍ من المعلمين العلماء واغتنى فكره من اتصاله بهم، وهو وإن لم يتَّفق مع بعضهم أو لم يرض عن فكرهم فإنَّهُ أقرَّ بفضل الجميع ونقل عنهم وذكرهم مراراً بين طيات كتبه. فتعلم النحو على يد الاخفش وعلم الكلام على يد ابراهيم النظام.

لقد تكوَّنَتْ لدى الجاحظ ثقافةٌ هائلةٌ ومعارفُ طائلةٌ عن طريق التحاقه بحلقات العلم التي كانت تجتمع لمناقشة عددٍ كبيرٍ وواسعٍ من الأسئلة، وبمتابعة محاضرات أكثر الرِّجال علماً في تلك الأيَّام، في فقه اللغة وفقه النَّحو والشِّعر، وسرعان ما حصَّل الأستاذيَّة الحقيقيَّة في اللغة العربيَّة بوصفها ثقافةً تقليديَّة، وقد مَكنَّهُ ذكاؤُه الحادُّ من ولوج حلقات المعتزلة حيث المناقشات الأكثر بريقاً وفلسفة ، والمهتمَّة بالمشكلات الَّتي تواجه المسلمين.

منهجه العلمي

انتهج الجاحظُ في كتبه ورسائله أسلوباً بحثيًا أقلُّ ما يقال فيه إنَّهُ منهجُ بحثٍ علميٍّ مضبوطٌ ودقيقٌ، يبدأ بالشَّك لِيُعْرَضَ على النَّقد، ويمرُّ بالاستقراء على طريق التَّعميم والشُّمول بنزوعٍ واقعيٍّ وعقلانيٍّ، وهو في تجربته وعيانه وسماعه ونقده وشكِّه وتعليله كان يطلع علينا في صورةِ العالم الذي يُعْمِلُ عقله في البحث عن الحقيقة، ولكنه مع ذلك، استطاع برهافة حسِّه أن يصبغ على بحثه صبغة أدبيَّةً جماليَّة تُضفي على المعارف العلميَّة رواءً من الحسن والظَّرافة، يرفُّ بأجنحته المهفهفة رفرفة العاطف الحاني على معطيات العلم في قوالبها الجافية، ليسيغها في الأذهان ويحببها إلى القلوب، وهذه ميزة قلَّت نظيراتها في التُّراث الإنساني.

التعريف بالكتاب: " **البيان والتبيين**" شرح العنوان: هو كتاب ادبي صرف يقوم على :

أولا: البيان من بانَ الشيء يَبينُ بَياناً اتضح فهو بَيِّنٌ، وكذلك أَبانَ الشيءُ فهو مُبينٌ .فالمراد به الدلالة وغيرِها مما يوضح به الشيءُ ، وكذلك الفهم وذكاء القلب مع اللِّسان اللَّسِن . يقال : فلان أبْيَنُ من فلان أي أفصح منه، وأوضح كلاما.

ثانيا: والتبيين من تَبَيَّنَ الشيءُ إذا ظَهَرَ ، و التَّبْيينُ: الإيضاح والوُضوحُ . وفي المثل : قد بَيَّنَ الصبح لذي عينين. ويقال عن البيان والتبيين ان المراد منه هو " الافهام والتفهيم"

أسلوب الكتاب ومنهجه:

والأسلوب الشيق احد أبرز مميزات الجاحظ؛ فهو سهل واضح، فيه عذوبة وفكاهة واستطراد بلا ملل، وفيه موسوعية ونظر ثاقب، وإيمان بالعقل لا يتزعزع ، ويمكن أن يعرف على أنه أسلوب عقلاني علمي رصين.

يعدّ كتاب البيان والتبيين من أواخر مؤلفات الجاحظ ، فقد ألف كتاب الحيوان وعمره اثنان وثمانون عاما، ونراه هنا يحيل عليه ، فهو من أواخر تصانيفه، وهو كتاب في الأدب يتناول فيه موضوعات متفرقة مثل الحديث عن الأنبياء، والخطباء، والفقهاء، والأمراء، والحديث عن تراث العرب القديم في البلاغة، واللسان، والصمت، والشعروالنثر، والخطب، والامثال والطرائف

والاخبار، والرد على الشعوبية ،واللحن، واخبار الحمقى والمجانين، ووصايا الأعراب ونوادرهم والحكم ،والزهد، وغير ذلك. ولقد شبه بعضهم أسلوب الجاحظ بأسلوب قصص ألف ليلة وليلة المتداخلة؛ إذ أن شهرزاد تحكي لشهريار قصة ، ثم يحكي أحد أبطال هذه القصة قصة فرعية، وتتخلل القصة الفرعية قصة ثالثة ورابعة أحيانًا، ثم تعود للقصة الأساسية. فالجاحظ يعد اسلوبه في الكتابة موسوعيا استطراديا اذ يتناول موضوعًا ثم يتركه ليتناول غيره، ثم يعود للموضوع الأول، وقد يتركه ثانية قبل أن يستوفيه وينتقل إلى موضوع جديد، وهكذا؛ فكل فصل من الفصول من «البيان والتبيين» – كما يقول أحمد أمين – : "فوضى لا تضبط، واستطراد لا يحد". والذي يظهر أن الاستطراد في المواضيع الجانبية ، لم يكن ضربا من الاعتباط والعبثية ، وإنما كان أسلوبا للجاحظ في كتبه يجري معه بقدر ما يكون مناسبا تنشيطا لقارئ الكتاب .

عني الجاحظ بفن القول والأداء ، وأفاض الكلام عن الفصاحة والبلاغة، والألفاظ ومخارج الحروف، وعيوب النطق عند بعض الناس، استهل الكتاب بالتعوذ من شرّ الحصر والعي وان الصمت خير منهما، كما أكثر الاقتباس من الآيات القرآنية والأشعار الغزيرة لاسيما تلك التي تتحدث عن فضل البيان والفصاحة.

النص المطلوب : وجاء في باب البيان :

((والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير ،حتى يغضي السامع الى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل، ...انما هو الفهم والافهام ، فبأي شيء بلغت الافهام واوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

ثم اعلم – حفظك الله – ان حكم المعاني خلاف حكم الالفاظ؛ لان المعاني مبسوطة الى غير غاية ، وممتدة الى غير نهاية ، واسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة .

وجميع اصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة اشياء لا تنقص ولا تزيد: اولها اللفظ، ثم الاشارة ، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة....)).

خصائص وسماته اسلوب الجاحظ في الكتابة:

يعد الجاحظ صاحب مدرسة في النثر العربي في القرن الثالث للهجرة تعرف بمدرسة الترسل وللجاحظ اسلوبه الخاص الذي يتميز بعدد من المميزات والخصائص ، منها:

1 -**افتتاح كتبه ورسائله بالبسملة والحمد لله والاستعاذة من الشيطان.**
2 -**اختياره للالفاظ التي تلائم المعاني ، ويتجنب الالفاظ العامية ولاسيا الغريبة والوحشية .**
3 -**الاقتصاد جدا في استخدام الزخرفة اللفظية والمعنوية لان اسلوبه ومنهجه يتنمي الى مدرسة الترسل لا مدرسة الصنعة .**
4 -**التقليل من التنقيح والتهذيب في الكتابة .**
5 -**الميل الى الاستطراد والاسهاب في الكتابة .**
6 -**كثرة الاقتباس من ايات القران الكريم ، والاحاديث النبوية الشريفة والامثال والشعر .**
7 -**ذكر الكثير من الطرائف والنوادر لبعث النشاط والاستمرار في القراءة**
8 -**التصوير البارع والوصف الدقيق .**